

مجلَّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 35 - 40
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط

خالد بلعربي
قسم التاريخ جامعة سيدي بلعباس

يجمع المشتغلون في حقل الدراسات التاريخية على أن الدور الذي لعبته الصحراء الكبرى في العصر الوسيط، لا يضاهيه الدور الذي قام به المحيط الأطلسي، فعن طريقها نشطت تجارة القوافل الصحراوية للتجار العرب المسلمين مع بلاد السودان الغربي والتي تعد نقلة نوعية كبيرة في تاريخ التجارة العربية الافريقية خلال العصر الوسيط.

لقد اعتبر الكثير من الباحثين الأروبيين أن الصحراء الكبرى شكلت عائقا للاتصال الحضاري المثمر بين البلاد العربية، وبلاد السودان الغربي، وحجتهم في ذلك وجود حاجز من الرمال المترامية الأطراف التي تفصل بينهما، وتوهموا أن هذا الحاجز ليس جغرافيا وفقط، بل أيضا سيكولوجيا مانعا لإنتقال الأشخاص، وقد أدت هذه القراءة الفوقية لتاريخ وجغرافية الصحراء على تغييب الألية الحقيقية لسيرورتها فعوض أن يبرز هؤلاء الباحثين الصحراء كأداة وصل فعالة بين التجار العرب وتجار بلاد السودان، آثروا أن يحجموا عن إبراز أهميتها التاريخية والجغرافية خلال هذه الفترة.

إن مداخلتي المتواضعة ستحاول تلخيص آراء هؤلاء الباحثين، من خلال إبراز العوامل التي ساعدت على تنشيط وازدهار تجارة القوافل خلال هذه الفترة، ثم التطرق إلى مراكز التجارة، وكذا الاثار الحضارية لتجارة القوافل بين البلاد العربية والسودان الغربي، وطبعا فإن هذه المحاولة بحكم تواضعها، لا تهدف إلى وضع نقطة النهاية على الموضوع بقدر ما ستفتح صفحة من صفحات تاريخ الصحراء الكبرى في العصر الوسيط، والباحثون والمؤرخون يدركون جيدا أن كل نتيجة بحث علمي إلا انطلاقة نحو بحث آخر.

بداية هذه التساؤلات أبدأها بتساؤل أعتقد أنه جوهري وهو: هل ثمة هناك عوامل ساعدت على ازدهار تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى بين التجار العرب ونظرائهم من بلاد السودان الغربي، ألم يلعب هؤلاء التجار دورا أساسيا في المنطقة، هل شكلت الصحراء الكبرى تيارا مضادا

يعوق حركة التجارة بينهما؟

إنه من الثابت ومن خلال المصادر التاريخية أن تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط، قد ازدهرت بشكل كبير بين التجار العرب المسلمين وبلاد السودان الغربي، ومن بين العوامل التي ساعدت على هذا الازدهار:

1- دور القوى السياسية في المغرب في تشجيع تجارة القوافل:

لعبت القوى السياسية في المغرب الإسلامي دورا لا يستهان به فيؤ تشجيع تجارة القوافل الصحراوية للتجار العرب المسلمين مع بلاد السودان الغربي، ومن بين تلك القوى الأسرة الرستمية الإباضية في تاهرت التي قامت بدور الوسيط لتجارة المشرق والمغرب من ناحية، وتجارة الصحراء والسودان من ناحية أخرى، وقد ساعدها على ذلك ارتباط تاهرت بمدن المغرب المختلفة بواسطة طرق تجارية متعددة، وإقامتاها لعلاقات تجارية مع المماليك السودانية جنوبي الصحراء ومع ممالك الشرق، عبر طرق التجارة الصحراوية[1].

وغنى عن القول، فإنه خلال الحكم الفاطمي للمغرب القرن الرابع الهجري، الحادي عشر الميلادي، فقد مارس المغرب نشاطا تجاريا مهما مع المشرق الإسلامي من جانب، وفي تجارة الصحراء من جانب آخر، فقد أصبحت سجلماسة مستقرا تجاريا مهما للتجار العرب خاصة من أهل العراق، والذين مارسوا التجارة مع بلاد السودان الغربي ويتضح ذلك من قول ابن حوقل بأن سجلماسة تتمتع ب"تجارة منقطعة منها إلى بلد السودان..."[2].

وشهد القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي قيام دولة المرابطين التي عملت على ازدهار التجارة وتنشيطها عبر الطريق الصحراوي الغربي الذي يربط مناطق المغرب الأقصى بالسودان الغربي، وكان يتفرع إلى فرعين: الأول يبدأ من سجلماسة في الشمال وينتهي بأودغست في الجنوب، ومنها إلى مدينة غانة السودانية، والثاني ويبدأ من وادي درعة مرورا بقرية "مزوكن" الصنهاجية حتى تصل القوافل مدينة غانة[3]، وقد شكل التقاء القبائل الصنهاجية المختلفة مع التجار العرب المسلمين في الكثير من المحطات التجارية عبر الطريق الصحراوي بفرعيه إلى نشاط الأعمال التجارية أكثر مما كانت عليه من قبل، وبعد خضوع المراكز التجارية في السودان الغربي لسلطة المرابطين[4]، ازداد الوجود العربي التجاري في هذه المنطقة، فأودغست كما يشير إليها البكري كانت خليطا من التجار العرب القادمين إليها من مدن المغرب المختلفة[5]، وخلال القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، أي في عهد دولة الموحدين زادت تجارة القوافل عبر الطرق الصحراوية، ازدهارا خاصة في عهد الخلفاء الأقوياء منذ عبد المؤمن بن علي حتى أواخر عهد المنصور، وهي فترة دامت زهاء نصف قرن[6]، وبسقوط دولة الموحدين في بلاد المغرب وظهور الدويلات الثلاثة على أنقاضها، الزيانيون بالمغرب الأوسط،و المرنيون

بالمغرب الأقصى، والحفصيين في المغرب الأدنى، فإن هذه الدول واصلت دعم الحركة التجارية مع ممالك بلاد السودان الغربي، فقد قامت تلمسان وفاس وسجلماسة وتونس بدور هام في ربط العلاقات التجارية مع السودان الغربي من خلال القوافل التجارية التي كانت تنطلق منها أو تعيرها في اتجاه بلاد السودان الغربي عبر الطرق الصحراوية، وقد شارك التجار العرب في تجارة القوافل هذه[7].

2- دور الجغرافيا وأهميتها في تأثير سير التاريخ الإفريقي:

لا بد للباحث في التاريخ الوسيط أن يتعرف على جغرافية القارة لأنها أثرت في سير التاريخ الإفريقي، فالتاريخ دراسة تقوم على الأهمية المكانية والزمانية، والمكان نقصد به المفهوم الجغرافي أي الأرض التي قاما عليها الأحداث التاريخية.

إن المغرب الإسلامي بحكم الجغرافي جعله يرتبط ارتباطا عضويا بالكيان الإفريقي ولقد لعبت التجارة دورا بارزا في ربط العلاقات بينهما، من خلال القوافل التجارية التي كانت تجوب الإقليمين، لقد ارتبطت بلاد المغرب الإسلامي بشبكة من الطرق في غاية الأهمية مع بلاد السودان الغربي، وقد سهلت هذه الطرق على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري وأحكمت الربط بين صحراوات المغرب وبلاد السودان الغربي[8]، ومن هذه الطرق، طريق مراكش إلى تمبوكتو، وطريق سجلماسة إلى أودغشت وطريق تلمسان إلى توات وتمبوكتو، وطريق توات إلى تنبوكتو، وطريق ورحلان إلى تمبوكتو، وطريق واحة الجريد إلى غدامس، وطريق واحة سيوة ببلاد السودان الغربي[9].

لقد جابت القوافل التجارية للتجار العرب المسلمين هذه الطرق التجارية خلال العصر الوسيط في اتجاهها نحو بلاد السودان الغربي والتي كانت تشمل نهر السنغال ونهر غامبيار والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر[10]، والجدير بالذكر أن التجار العرب بعد تغلغلهم في الصحراء الكبرى كان هدفهم الرئيسي الوصول إلى المراكز التجارية السودانية، وكان لهم ذلك، بل أن بعضهم استقر في المدن السودان يمارس أعماله التجارية فأصبحت تلك المدن بدورها مراكز لقاء بين العرب والسودانيين، يظهر أثر ذلك واضحا في التأثير الإسلامي الحضاري في تلك المنطقة منذ القرن 5هـ/11م[11].

ومن المؤكد أيضا أن المراكز التجارية المغربية، والسودانية كانت حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان عبر الصحراء الكبرى.

3- آراء المؤرخين عن هذه اطرق وأهميتها:

تعتبر العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين العرب المسلمين مع بلاد السودان الغربي أقوى الروابط في تاريخ الاتصال بين هذين الإقليمين، وتعبّر الطرق أهم وسيلة لهذا الاتصال، وقد اختفت نظرة لمؤرخين لهذه الطرق التي كانت وسيلة الاتصال الاقتصادي،

والثقافي، والسياسي في آن واحد معا، يقول البكري:" إن الماء متوفر في الصحراء ويوجد على مسيرة يومين أو ثلاثة من وادي درعة إلى وادي تارجا[12] ، ويتضح من حديث البكري وفرة المياه في الصحراء الكبرى، وأن السفر عبر الصحراء الكبرى لم يمن أمرا شاقا وصعبا، ولم تمن الصحراء الكبرى فيافي بلا ماء وعشب، ولكنه يتوفر في أحيان كثيرة بل توفرت فيها المياه السطحية، كما أن بها عيونا ومياه جارية، ويؤكد ابن خلدون ابن خلدون في تاريخه وجود أبار ارتوازية بالصحراء بقوله:" وفي البلاد الصحراوية إلى وراد العرق غربية في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوي جوانبها إلى يوصل بالحفر إلى الحجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جومها، ثم تصعد الفعلة، ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء فينبعث صاعدا فيفعم البئر، ثم يجري على وجه الأرض واديا"[13]، ويتحدث ابن بطوطة عن مشكلة المياه فيقول: "أقاموا في تغازة عشرة أيام في جهد لأن ماء هازعاق، وهي أكثر المواضع ذبابا، ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها، وهي مسيرة عشرة أيان لا ماء فيها إلاّ الناذر[14]، ويرى بوفيل أن أهم هذه الطرق هو الطريق الممتد من تغازة إلى تنبكتو، وهو الطريق الذي اشتهر بتجارة الذهب[15].

ولابد من الإشارة إلى أن القوافل التجارية المارة عبر الصحراء الكبرى كانت تعترضها عدة أخطار منها: الرياح والعواصف، حيث كانت تشكل الرياح أضرار للقافلة لأنها تحمل ذرات الرمل الدقيقة وتدفع بها إلى كل أجزاء جسم المسافر، فتكون كالسكاكين الحادة، وإذا تراكمت ذرات الرمال حول الواقف قبرته في عدة دقائق، وزيادة على هذه الأخطار الطبيعية التي كانت تعترض القوافل التجارية فإنها بالمقابل فقد كانت القافلة تتعرض لمضايقات قطاع الطرق الذين كانوا ينشطون بكثرة[16].

4- الآثار الحضارية للتجارة بين العرب المسلمين والسودان الغربي:

كانت القوافل التجارية تحمل معها إلى بلاد السودان الآلاف من البشر، مما جعل أثر تجارة القوافل ملموسة في السودان الغربي، وقام التجارة بتعميق العلاقات الثقافية، فأنشأوا المدارس لتعليم القرآن وأقاموا المساجد، وإلى جانب مزاولتهم للنشاط الاقتصادي، فإنهم مارسوا نشاطا تعليميا كذلك، فالتاجر العربي كان يجمع بين الدعوة وبيع سلعته، فكان يقوم بنشر اللغة العربية التي هي لغة القرآن عن طريق استعمالها في معاملاتهم مع الأهالي فانتقلت نتيجة لذاك أسماء الأوزان والمقاييس والمكاييل إلى آمغات المحلية[17]، إضافة إلى ذلك فقد تم الامتزاج بين التقاليد الإسلامية الوافدة من البلاد العربية وبين التقاليد الزنجية المحلية، وتمت الملائمة بين العنصرين، وظهرت تقاليد إسلامية إفريقية وتظهر لنا هذه الصور من إشارات كثيرة وردت في ما كتبه بعض المؤرخين فالسعدي[18] صاحب كتاب تاريخ السودان تلمح عند حديثه

عن سلاطين نسغي إلى مواكبهم واحتفالاتهم واحترام الناس لهم، وهذا يوحي أن ثمة مظاهر إسلامية صرفة أو عربية خالصة، ومن الآثار كذلك أنه يفضل تأثير الإسلام في المنطقة أن النظام القبلي بدأ يتفكك تدريجيا إذ قض الإسلام على التكتلات القبلية العنصرية[19]، أدى دخول الإسلام إلى السودان تفكك العادات الوثنية التي كانت متبعة في النظام القبلي شيئا فشيئا، ؤاكتسب الأهالي بعض الأسماء العربية والعادات الإسلامية[20] فاختفت بعض العادات الوثنية القبيحة كأكل اللحم البشري، وتقديم القرابين البشرية ووأ الأطفال.

يتبين مما سبق أن القوافل التجارة العرب المسلمين وبلاد السودان الغربي عبر الصحراء كانت نشيطة رغم بعض الأخطار التي كانت موجودة، فقد دفعت القوى السياسية في بلاد المغرب على تشجيع تجارة القوافل في العصر الوسيط، كما أن الجغرافيا كان لها دور كبير في تأثير سير التاريخ الإفريقي، من جانب آخر فكان لتوفر الطرق التجارية أثر كبير في ازدهار التجارة واستطاع التجار العرب أن يؤثروا في مجتمعات بلاد السودان الغربي في العادات والتقاليد ونشر الدين الإسلامي واللغة العربة..

الهوامش:

1- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق إبراهيم بحاز ومحمد ناصر، دار الغرب الإسلامي 1986، ص 26.

2- ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت 1979ص، .99

3- البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، باريس 1965، ص .164

4- صباح إبراهيم الشيخلي، النشاطات التجارية العربي عبر الطريق الصحراوي الغربي من نهاية القرن الخامس الهجري، مطبوعات معهد البحوث العربية، بغداد 1984، ص .35

5- البكري، المصدر السابق، ص .166

6- عبد الحميد حاجبات و آخرون، الجزائر و التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984، ص 336.

7- لطيفة بن عميرة، الرحلة التجارية بين تلمسان و ممالك بلاد السودان الغربي، مجلة المؤرخ العدد 05 جوان 2005، دار الكرامة للطباعة والنشر، الجزائر، ص .84

8- بلعربي خالد، العلاقات التجارية بين الدولة الرستمية و السودان الغربي، مجلة كان التاريخية، العدد 09، ص .63

9- رضا جواد الهاشمي، تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم، القاهرة 1984، ص .12

10- بن الذيب عيسى وآخرون، الحواضر و المراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية، الجزائر 2007، ص .18

11- صباح إبراهيم، المرجع السابق، ص.37

12- البكري، المرجع السابق، ص 163 - .164

13- ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، دار الكتاب اللبناني 1959، ج7، ص .119

14- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المكتبة التجارية بمصر 1964، ج2، ص 192.

15- Bovill, E.W, The Golden trade oh the Moors, volume III oxford university. Press 1968.p.235.

16- لطيفة بن عميلا، المقال السابق، ص .86

17- نفسه، ص .86

18- السعدي، تاريخ السودان، نشر هوداس، طبعة باريس 1964، ص .12

19- نفسه، ص .14

20- نفسه، ص 15.